الفصل الثامن

تأسيس وتنظيم الكنيسة

(ا) المسيح لم يؤسس الكنيسة ولم يردها ويبدو أن الحواريين من اهل الجليل لم يفكروا فى هذا أيضا – صمت النصوص الإنجيلية – أسطورة سبق بطرس – الحواريون مهدوا للكنيسة دون إدراك منهم للأمر – جماهير المؤمنين وكنيسة الله – فكرة بولس عن الكنيسة قبل تنظيمها – كيف تحتم هذا التنظيم – مفهوم الكنيسة فى بداية القرن الثانى .

(ب) أصل الكنائس الخاصة – المثل التى احتذتها فى تنظيمها – الجماعات الوثنية والمعابد اليهودية – ضرورة إنشاء الوظائف – الإسراع بالتطور – التأثيرات المختلفة التى يسرت إنشاء الإكليروس وقيام نظام الأساقفة .

(حـ) نظام الأساقفة الملكى – أصوله – زوال نظام الأساقفة الجماعى : أسبابه – مقاومة البدع واحترام السنن المأخوذة عن الحواريين – الأسقف كرئيس للكنيسة – نظرية إيجناس – الأسباب الخارجية التى مهدت لتحقيق هذه النظرية عامة – « قوائم » الأساقفة .

(د) انتخاب الأسقف – شروط الانتخاب – سلطات الأسقف – حدود هذه السلطات – المقاومة داخل الإكليروس – إنشاء « هيئة الكنيسة » – التدرج فيها – التميز فى الأمة المسيحية بين رجل الدين وبين الرجل العادى .

(هـ) المفهوم الكاثوليكى للكنيسة – العناصر الأساسية لهذا المفهوم – دور كنائس الحواريين – المركز الفريد لكنيسة روما – الكنيسة فى بداية القرن الثالث .

(١)

إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردها .

ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث يدرس النصوص الإنجيلية فى غير ما تحيز ، بل إننا نؤكد أيضاً أن الفرض العكسى لا يمكن أن يوجد له سند تاريخى مقبول ، ولم يستطع رجال اللاهوت ، بكل ما أتوا من براعة ، حيال ذلك شيئا . ومهما بلغ من فقر معلوماتنا عن تعاليم المسيح ، فإنها لتبدو لنا ، فى مجملها ، كرد فعل ضد التعصب الضيق الأفق للشريعة الموسوية لدى اليهود ، وضد شعائرهم التى تزيد فى صرامتها عن الحد المعقول ، وإن كانت الشعائر والشريعة – بعد ذلك – من ألزم اللوازم الأساسية لكل حياة تريد أن تشكل ، حقيقة ، كنيسة . ثم إنها لتبدو لنا حافزا قويًّا من حوافز « الاجتهاد الفردى » . فالإنسان يجب أن يرتفع روحيا نحو « أبيه » الذى فى السماوات ، بالاطمئنان والحب ، ثم بـ « التوبة » أيضا ، أى : الرجوع النهائى عن خطاياه ، بتطهير ضميره والتسامى بإرادته . وذلك بالذات هو المبدأ المضاد لفكرة الكنيسة . ولقد ذكرنا فيما سبق ، بالإضافة إلى ما نقول به هنا ، أن عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك . ومن شأن هذا الأمل أن ينفى من منطقه كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوى لأتباعه . ثم إن عيسى كان يهوديًّا ، خاضعاً تمام الخضوع لشريعة بنى إسرائيل الدينية – وإن عارضها ظاهريًّا فى سبيل توسيع مداركها فعليًّا حسب ما ظن أنه روحها الحقة . لهذا كله ، لابد لنا من الإيقان بأنه لم يكن ليعمل فكره لحظة واحدة فى رسم خطوط ما نسميه بـ « الكنيسة » .

وإذا ما قلنا إن المسيح صرح للحواريين الاثنى عشر بسلطة ما – وهذا محل جدل حتى اليوم – فما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان فى التبشير بالتوبة وبحلول مملكة الله ؛ ولم يصنع منهم « قساوسة » حيث لم يكن فى حاجة إلى ذلك . وعلى أى حال فإننا عندما ندرس ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال ، لانجد أنهم فكروا فى إنشاء الكنيسة ، إذ ظلوا على إخلاصهم للدين اليهودى وداوموا بكل دقة على شعائره مؤمنين أيضا بأن المستقبل لمملكة الله ، وليس لكنيسة ما .

والنصوص الإنجيلية لم تنسب قط إلى المسيح تعبيرا مثل : « كنيستى » ، أو : « كنيسة الأب » ، إلا فى مناسبة واحدة نقرأ فيها : « إنك أنت – لبطرس – (بطرس – صخرة) ، وعلى هذه الصخرة سوف أبنى كنيستى » (إنجيل متى ، ١٨/١٦ – ١٩) ولكن هذا الحديث المشهور ، والذى استغل أقصى الاستغلال ، لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على صحته ، إلا إن أعلنا أن المسيح ، فى ساعة من ساعات الغفلة والتيه ، قد تنكر لتعاليمه ، ولعمله ، ولرسالته ، بل لذاته أيضا[1] . وإن النصوص والأحداث ، فى تسلسلها ، لتدل دلالة قاطعة لا تقبل الجدل على أن أسبقية بطرس الحوارى – التى يقال فى إنجيل متى أن عيسى قد صرح بها – لم يكن لها أى حفظ من الواقع ولم توجد قط ، وعلى أن الأتباع الذين تجمعوا حوله وحول حنا ويعقوب لم يقدروه ولم ينصتوا إليه إلا باعتباره رجلا شرف بثقة الأستاذ وبمودته .

بيد أن الحواريين قد وضعوا – دون إدراك منهم – الأحجار الأولى لبناء

---

(١) راجع الفصول الثلاثة الأولى من كتاب المؤلف المطبوع بباريس عام ١٩٠٩ : « أسبقية بطرس ورحلته إلى روما » .

الكنيسة . وعندما نرى « السنن المأخوذة عن الحواريين » تستخدم فيما بعد على أنها القمة العليا المترهة عن الخطأ فى كل ما تقدمه الكنيسة ، فليس ذلك اختراعا كله ولا تأليفا ، وإن كان نتيجة لنوع من المبالغة فى التقدير . وهذا أمر جدير بالتفسير .

يمكن القول بأن « فكرة الكنيسة » نشأت عن انتقال الأمل المسيحى من فلسطين إلى ربوع العالم اليونانى ، وأيضا - إذا شئنا - عن تطور هذا الأمل إلى العالمية . مهما يكن من احتقار الناس للحياة الدنيا ، فلابد لهم من أن يشعروا بنوع من الوحدة فيما بينهم ومن التضامن الذى قد تتفاوت قوة الرباط الناتج عنه ، عندما يتعلقون بأمل واحد للمستقبل ويسعون فى سبيله إلى التخلص من مظاهر حياتهم الدينية السابقة . غير أن اليهود « الذين أظلمت قلوبهم » لم يلبثوا أن طردوا أتباع المسيحية من معابد المهجر ، سواء منهم من كان يهودى الأصل أو مريدا لليهودية . كذلك ترك الوثنيون الذين آمنوا معابدهم . والتف الجميع حول عبادة واحدة تمجد « السيد عيسى » . وكانت بطبيعة الحال عبادة بدائية ، إلا أنها انطوت منذ ذلك الحين على فكرة الاجتماع الأخوى (فالأتباع يطلقون على أنفسهم فيما بينهم كلمة « الإخوة ») ، والصلاة الجماعية ، وطقوس المعرفة ، وشعائر التقرب - سواء منها شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد بين السالكين (وفى هذا المجال نرى الاتباع يسمي بعضهم بعضاً بـ « القديسين » ، وهو تعبير ذا مغزى) ، أو شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد مع السيد وعلى مائدته وكان هؤلاء القوم الذين « يبتهلون باسم سيدنا عيسى المسيح » ويستطيعون أن يتسموا بـ « قديسى هذا المسيح » بل يعتبرون أنفسهم « إخوة فيه » مهما تباعدت ديارهم ، كانوا جميعاً أعضاء فى « كنيسة الله » ؛ أى أنهم مهما تفرقوا أشتاتاً فى

بقاع الأرض الشاسعة يظلوا لدى الله الصفوة المختارة من أمته .

وذلك مفهوم يعبر عنه بولس فى وضوح تام . ونعتقد أنه عندما يتحدث عن « كنيسة الله التي فى كورنثيا » فإنما يعنى فقط – أنه سمح لنا باستخدام هذا التعبير – « جزء كنيسة الله العالمية » الذى يقوم بتلك المدينة ، لا جماعة منظمة أو هيئة كنسية أسست فى كورينثيا ، ونفسر فكرتنا هذه تفصيلا ، فنقول : إن الفكرة الصوفية للكنيسة « فى » الله نشأت من ذاتها « فعلا » وبالضرورة فى عقل رجل مثل بولس ، قبل أن تظهر فكرة إنشاء تنظيم كنسى خاص . ففى الوقت الذى يحدثنا فيه الحوارى عن كنيسة الله ، تدل رسائله على أن جماعة كورينثيا تعيش فى فوضى داخلية ، ونعنى بذلك أنها تركت زمام أمورها إلى توجيهات الملهمين التى لا تسلك خطًّا تنظيميًّا محدوداً معروفاً . وإننا لنعلم علم اليقين أن سائر الملهمين يمكن اعتبارهم أعداء الداء لكل إكليروس ؛ ولهذا السبب لم يكن للجماعة إكليروس بعد .

ويمكن أن ندرك مفاهيم هذه الحياة التى كانت تعيشها الجماعات المسيحية خلال عهدها الأول من الحماسة والتهيؤات ، يمكن أن ندرك مفاهيمها عندما نتأمل ما يروى لنا من أن « القديسين كانوا فى مساء كل سبت من أيام الأسبوع يترقبون ، مع فجر النهار التالى ، « عودة » السيد فى اليوم الأعظم الموعود ، ذلك الذى تطلعوا إليه بجماع قلوبهم . فلما مضت الأسابيع ، ثم الشهور والسنون دون أن تأتى البشرى بـ « العودة » البهيجة ، ظهرت أضرار الفوضى ومساوئها ، فى حين توثقت صلة الأخوة بين رحاب الجماعة ، وتسامى الأمل فى الخلاص – بفضل انفصال « القديسين » عن حياة العالم الدينية العامة – إلى مستوى الأديان المستقلة . وعندئذ أصبح من المحتم التفكير فى تنظيم مجتمع الصفوة المختارة .

وبالتالى بدأ الإجراء المقابل لما تم فى تفكير بولس ، فتطورت كل طائفة محلية من الإخوة إلى كنيسة ، وكنيسة الله هى مجموع تلك الكنائس الخاصة ، التى تتبادل الرسائل والتضحية بالثبات ، والتى تعتمد كل واحدة منها على الأخريات . فهى إذن تنزع « أولا » إلى الخروج عن كونها تعبيرا صوفيًّا للحقيقة ، لتصبح واقعا ملموسا ؛ ثم هى « بعد ذلك » تنزع إلى البحث لنفسها عن تحقيق مادى ، أى عن تنظيم وجودها ، من أجل مستقبل بعيد محتوم ، وباعتبارها - كما ذكرنا آنفاً - ظاهرة عامة مستقلة .

ونعتقد أننا ، إذا وقفنا على أعتاب القرن الثانى لنتأمل المسيحية ، سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعا فى الله قد ثبتت تمام الثبوت ودعمت بالعقيدة الشائعة بين الناس والتى تقول بأنه ليس هناك فى الحقيقة سوى دين صحيح منج واحد يجب البحث عن أسسه القوية العميقة فى « سنن الحواريين » . والفكرة الذائعة عامة هى أن هذه الأسس حفظت فى « الكنائس الحوارية » ، أى تلك التى يقال إنها أنشئت بإيحاء من أحد الحواريين .

ولم تكن « الكنيسة » فى الواقع قد بلغت سوى طور « الأخوة » بين المؤمنين المشتتين فى مختلف الكنائس الخاصة . إلا أنه اتضح أن المسيحيين لا يميلون إلى الفردية فى العبادة ، وأنهم - سواء فى سبيل تدعيم العقيدة أو مقاومة الأعداء يحبون التجمع . وبالتالى فهم لا يفهمون أن تعيش كنيسة ما - مهما بلغ من استقلالها وسيطرتها على مقدرات أمورها - فى عزلة عن بقية الكنائس ، كما لا يفهمون أن ينفصل « أخ » عن جماعة الأخوة بالمدينة التى يعيش فيها . بيد أن الأخوة المسيحية الكبرى ، أى كنيسة الله ، لم تكن قد تطورت بعد فى تنظيم يبرز

كيانها المادى ؛ ولم يكن المراقبون من غير المسيحيين ليروا فيها سوى كنائس خاصة .

(ب)

ولا تزال نشأة هذه الكنائس الخاصة نفسها غامضة بعض الغموض بالنسبة إلى الباحثين . وإذا ما أردنا أن ندرسها فى شىء من الإنصاف ، التى انطوت على كلتيها ، أو مشكلة أحقية مريم العذراء فى لقب « أم » خنعوا ظاهريًا لرجال الإكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا عنهم قواعد الإيمان ، لم يكونوا فى الواقع على تلك الدرجة من السلبية التى ظنت بهم . بل أن الأمر أخطر من ذلك فى الحياة الدينية .

وكانت النماذج التى يمكن أن تحتذى فى هذا المجال متوافرة : فقد وجدت منذ زمن بعيد فى قسمى الإمبراطورية الرومانية ، اللاتينى والرومانى ، جماعات أو اتحادات دينية أنشئت من أجل غرض واحد : التعاون فى الخير أو الحث على التقوى ، وسميت عند اليونان بـ « الأران » أو « التياس » ، وعند الرومان بـ « الكوليجيا » . ونذكر على الأخص من بين ألوان « الكوليجيا » هذه ما أطلق عليه اسم « كوليجيا تنويوروم » ، أى : جماعة مؤلفة من صغار الناس . وكان لكل جماعة مديرها المنتخب وصندوقها الذى تموله الاشتراكات ويشرف عليه مندوب خاص .[٥]

ومن ناحية أخرى فإننا نعلم – وقد سبق لنا شرح ذلك – أن يهود المهجر كانوا يتجمعون حيثما التقوا – وإن لم يزد عددهم على أصابع اليدين حول معبد لهم ؛ وأنهم ، وإن اختلفوا أحيانا فى التنظيم ، كانوا يأخذون بقواعد وقوانين

محددة . لذلك كان المسيحيون – سواء منهم الوثنى أو اليهودى الأصل – على علم بالأساليب المحتملة لإقامة حكومات تدير جماعاتهم .

ومن المرجح أن كلا التأثيرين ، تأثير الجماعات الوثنية وتأثير النظم اليهودية ، وقعا عليهم فى آن واحد ، مع ترجيح اتجاه أحدهما على الآخر حسب ظروف الزمان والمكان . وقد فرضت الضرورات أنواع الوظائف ، وسمى الموظفون بأسماء أخذت عن اللغة الشائعة مثل :

« بريسبيتيروس » ، أى : شيخ .

و « إيبسكوبوس » ، أى : مشرف .

و « دياكونوس » ، أى : خادم .

وقد تطورت معانى هذه الكلمات فيما بعد إلى : قس ، وأسقف ، وشماس .

وتغلبت الجماعات ، فى كثير أو قليل من البراعة والتوفيق ، على المشاكل الخاصة بتعليم الأتباع الجدد ، والمحافظة على النظام والآداب العامة ، وتدعيم سنن الإيمان الصحيحة ، وتأمين شعائر العبادة ، وضمان قوت المعوزين .

ويكفينا أن نطالع « أعمال الرسل » ، و « رسائل » بولس ، ثم تلك الرسائل الثلاث المنسوبة إلى بولس ، وإن كانت لاحقة له ببضع سنين – والمسماة بـ « الباستورال » ، يكفينا هذا لندرك مدى الإسراع فى التنظيم منذ البدء فيه . ففى نهاية القرن الأول نلمح – فى بعض الكنائس على الأقل – « أسقفاً » واحداً ، و « مشرفاً » عاماً على الجماعة كلها (وهو الشخص الذى سوف يسيطر بعد ذلك على جميع الوظائف) ، ثم إلى جانبهما مجموعة من « الشيوخ »

تخصصوا فى الوظائف الروحية ، ومن « الخدم » الذين وكلت إليهم الوظائف المادية .

وكان من دعائم هذه التنظيمات الثابتة القوية ، ومن أسباب تحديدها : ما نلحظه بادئ ذى بدء من شك وريبة يزدادان بمرور الزمن – ونرجح أنه كان لهذا الشك ولهذه الريبة مبرراتهما القوية – فى أمر « الملهمين المتجولين » الذين راحوا يجوبون البلاد متخذين ألقاب « الحواريين » أو « الأنبياء » أو « المبعوثين » . ويبدو أنه كان لهم أثر لا يستهان به على الجماعات فى أول سنى حياتها . وكان من الدعائم والأسباب أيضًا : تدهور نفوذ « الملهمين المحليين » ؛ إذ سئم الناس من كل ما هو خارق للعادة ومن المعانى التى لا يجدون فيها انسجاماً واتساقًا . فإيمان العامة يتطلع بطبيعته إلى الثبات ؛ والثبات لديه مرادف للحقيقة . و « المواهب » التى أفاضتها « الروح القدس » حسب ما شاءت على جماهير قد يقل عددها أو يكثر من « الإخوة » لم تكن لتضيع بذلك على القوم ، بل كان مصيرها المحتوم أن تنصبّ فى روح « الأسقف » فتدعم سن سلطته . ثم نجد أن الرغبة فى تنظيم الشعائر والطقوس ، ذلك العمل الذى تفرضه البيئة المحيطة والذى يحتم وجود « متخصصين » ، كان لها أثرها فى تحديد وتدعيم هذه الوظائف ؛ إلى جانب ما وجدته من سند أخير فى الفكرة التى سريعا ما تأصلت لدى المسيحيين من أن الرعاة مسئولون أمام « السيد » عن الرعية التى أسلمهم زمامها ، ومن أن المسئولية تستلزم السلطة .

واتسعت هذه التأثيرات جميعاً فى نزعتها إلى منح نفس الأشخاص الوظائف التى كانت متميزة فيما مضى ، من تعليم وتبشير وإدارة ، أو – على الأقل – إلى تخويل شخص واحد ، هو « الأسقف الأمير » ، الإشراف الأعلى على كل

الوظائف . وإن نشأة وانتصار « الأسقفية الملكية » ليعتبران المرحلة الأولى من المراحل الكبرى لتنظيم الكنيسة ، وكان لها نتائج لا تحصى على كيانها خلال القرون التالية .

(حـ)

سبق لنا القول بأن كلمة « أسقف » (إبيسكوبوس) تعنى « مشرف » . ونضيف هنا أنها كانت تستخدم أحياناً لدى الجماعات الوثنية كمرادف لكلمة « إبيميليتس » ، أى : « مندوب » أو « وكيل » أو « مدير » فى بعض الأحوال ، مع تضمنها دائماً فكرة « الإشراف » . وفى البدء لم يشتغل الأساقفة – وكانوا كثرة داخل كل جماعة – بالتعليم ولا بالتبشير إلا بوصفهم القدوة الطيبة التى يجب أن تحتذى . كان شغلهم الشاغل إقامة وتدعيم اتجاهات الكنيسة فى ممارسة الأخلاق الحسنة ومبادئ الإيمان الصحيح ؛ وكان لهم الإشراف الأعلى على ما يمكن أن نسميه بـ « المسائل الزمنية » للجماعة . والنصوص القديمة تقرب بينهم وبين « الدياكونوس » لا « البريسبيتيروس » . وهذا أمر صغير فى حد ذاته ، إلا أن له دلالته فيما يتعلق بنشأة الوظائف الأولى وخصائصها .

ولقد نمت سلطاتهم سريعا بعد أن تلاشى النظام الأسقفى الجماعى . ونحن لا نعلم تمام العلم كيف تم هذا التطور ، ولكننا ندرك بصورة أكثر وضوحا الأسباب التى جعلت منه تطورا محتوما . ففى ذلك العصر الذى لم تكن رمزية الإيمان قد أثقلت بعد بالعقائد ، والذى نشطت فيه كل النشاط – بفعل البيئة

ذات الاتجاهات التأليفية – تلك النزعة الخطيرة إلى الإضافة والإعلاء التى مرت بها أغلب الأديان ، فى ذلك العصر كان من الضرورى أن تحاط جماهير المؤمنين بسياج دفاعى يصد عنهم « ذئاب » العالم الخارجى ، وأن تنظم حمايتهم أيضا فى الداخل ، أى : ضد « أصحاب البدع » . ورأى المسيحيون أن دفاعهم لن يزداد إلا قوة وبراعة إن تولى أمره زعيم فرد . والسلطات التى من شأنها تدعيم النظام وضمان التراحم الاجتماعى بدت أكثر فاعلية عند تركيزها بين يدى رجل واحد . ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعات الوثنية واليهودية تميل عامة إلى اتخاذ « رئيس » يؤمّن وحدة العمل فيها ويرمز إلى الترابط بين أعضائها . أما عند « الإخوة » المسيحيين فقد انتشرت سريعا تلك العقيدة التى تقول إن الحواريين سبقوا إلى التفكير فى كل مشاكل الكنيسة المستقبلة وأوجدوا لها الحلول ، وأنهم هم الذين أنشئوا نظام الأساقفة من أجل ذلك . وصورت كل جماعة نفسها على أنها نوع من « التلخيص » لكنيسة السيد الكبرى ، رأسها الشرعى الأسقف الذى يتخذ فى ذلك قدوة من المسيح رأس كنيسة « الله الكبرى » . وأخيراً ، قد أصبح الأسقف ، على أثر نمو الطقوس الدينية ، رئيسا للعبادات الجماعية ، وكان ذلك تطويعا حتميًّا – وإن لم يكن طبيعيًّا فى بعض جوانبه – لمفهوم « القس الأكبر » عند اليهود .

وهكذا نرى عوامل متعددة ، وذات أصول واتجاهات متباينة ، تعمل على تركيز السلطات الأسقفية بين يدى أسقف واحد . ولكن الأسقف لم يصبح حاكما بأمره فى كنيسته عقب تفرده بتلك الوظيفة مباشرة ؛ بل نراه ، خلال فترة قد تطول أو تختصر حسب ظروف البيئة المحيطة ، رئيساً لـ « البريسبيتريون » ، أى : ذلك المجلس الذى يتكون من مجموع « البريسبيتريومس » فى كل كنيسة .

إلا أن تلك كانت مرحلة من المراحل فحسب فى تاريخ الكنائس الخاصة ؛ وقد تخطتها بعض كنائس آسيا منذ بداية القرن الثانى . ففى هذا القرن ، كان إيجناس الأنطاكى يعلن أن الأسقف هو ممثل الله فى الكنيسة ، ولا يصح لأحد أن يأتمر بأمر غيره فيها ، ومخالفة ذلك رجز من وحى الشيطان . وكانت الفكرة الضمنية المتعارف عليها بطبيعة الحال : أن الأسقف لا يقوم بعمل إلا بالاتفاق مع هيئة « البريسبيتروس » و « الدياكونوس » . ولكن إيجناس يقول فى نهاية حديثه : « لتكن أعينكم معلقة بالأسقف حتى ينظر إليكم الله » ؛ ويقول : « عليكم بتمجيد الله والأسقف » ! . . ومن العسير أن يبلغ إنسان فى هذا الاتجاه شوطا يفوق ما تقدمه لنا نصوص إيجناس من معانٍ .

وفرض النظام الأسقفى الملكى نفسه بالتدريج على سائر الكنائس فيما بين عام ١٣٠ وعام ١٥٠ على وجه الترجيح . ودعمت انتصاره الأزمات العديدة التى مرت بها الكنيسة بعد ذلك : من اضطهادات تشتت « الرعية » وتقضى على جموع كبيرة منها ، ثم – وهذا أهم ما نراه من آثار – عودة مرتدين كثيرين يرغبون فى العودة إلى رحاب الكنيسة التى لم تكن لتقبلهم من جديد إلا بعد اتخاذ الحيطة اللازمة ، ومن بدع ترتبت خاصة على التركيبات التأليفية لفروض الإيمان الأساسية مع أساطير شرقية قديمة ونظريات فلسفية يونانية ، واتضح خطرها البالغ حيث كانت عامل إغراء لـ « المفكرين » من « الإخوة » ثم لأهل التصوف من بعدهم ، أو على العكس لكل هؤلاء الذين يفتنهم المظهر العملى الفعال للطقوس السحرية . وعلى أى حال فقد اقتدت الكنائس بعضها ببعض ، بحيث تلاشت سريعا مظاهر المقاومة التى أبديت أحياناً تجاه تطور النظام الأسقفى . وصار المسيحيون ، فى بداية القرن الثالث أو حوالى ذلك ،

يؤمنون عامة بأن وحدة التنظيم يجب أن تكون موازية لوحدة الإيمان وألا تقل أهمية عنها .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ العمل النشيط فى سبيل تبرير الأمر الواقع . فشاع الاعتقاد بأن النظام الأسقفى الملكى إنما أنشأه الحواريون أنفسهم ، وتقدمت كل كنيسة بقائمة للأساقفة ترجع بها إلى الحوارى الذى أنشأها ، أو إن لم يتيسر لها الاعتماد على حوارى فإلى تابع من أتباعه أو مندوب من كنيسة حوارية كان له الفضل الأول فى تأسيسها . واتخذ لسلطة الأسقف رمزا من ذلك الكرسى (« الكاتيدرا ») الذى زعموا أن قد جلس عليه سائر الخلفاء . فإذا ما قيل مثلا : « كرسى بولس » ، فإنما يعنى ذلك : « سلطة أسقف روما » . وعلة هذه السلطة هى « سنن الحواريين » ، مثلها فى ذلك مثل « شروط الإيمان » . ولن يبحث الباحثون عن تبريرات إنجيلية للنظام الأسقفى الملكى إلا فى عهد متأخر ؛ ولقد وجدوها فى إنجيل متى خاصة (١٦ / ١٩) : « ولأعطينك مفاتيح مملكة السماوات . ولسوف يعقد أيضا فى السماوات كل أمر تعقده فى الأرض . ولسوف يحل أيضا فى السماوات كل أمر تحله فى الأرض » .

(د)

كان الأسقف ينتخب بواسطة الشعب ، ثم كان ينصب عضواً فى السلك الكنسى بواسطة الأساقفة المجاورين . وكان للشعب ، نظريًّا ، الحق فى اختيار من يشاء . غير أننا نلمس منذ ذلك الحين محاولات تهدف إلى تجريده من هذا الحق ، فضلا عما كان يتلقاه من إيحاءات وتوجيهات من طرف « البريسبيتيروس » و « الدياكونوس » فى هذا الشأن ، إيحاءات وتوجيهات

لاتخرج عن حدود الشرعية وتترتب عليها فى أغلب الأحوال آثار هامة . وقد نرى أسقفا يعين خليفة له ، أو مجموعة من الأساقفة يقومون بملء وظيفة شاغرة بمطلق إرادتهم الجماعية . ولكن هذه الأمثلة لم تكن بعد سوى حالات استثنائية أملت التصرف فيها ظروف خاصة .

وكانت شروط الانتخاب ما تزال مرنة واسعة : يطلب من الأسقف المرشح أن يقدم دليلا على أخلاقه الطيبة ، وضمان ذلك أن يكون متزوجاً أو أرمل ؛ ويطلب منه كذلك أن يكون ذا إيمان قوى ، أى ألاّ يكونْ من الوافدين الجدد على المسيحية . أما المؤهلات الثقافية فكانت مسائل ثانوية ؛ وأما السنّ فلم يكن بعد قد اتخذ مكانه كشرط هام ؛ إلا أن القوة الجسمية العامة كانت من مستلزمات الوظيفة ، وإن تسامح أولو الأمر بعض التسامح فى هذا الشرط . ولم تكن قد فرضت بعد أى شروط تتعلق بالوظائف السابقة فى الكنيسة ، أى أنه كان باستطاعة الشعب أن يختار لوظيفة الأسقف « أخًا » بسيطاً من الإخوة . غير أن الأساقفة – على الأقل – بدءوا يتجهون إلى المطالبة باختيار المرشحين من بين الذين تدرجوا قبل هذا فى وظائف كنسية أخرى ؛ وتلك حيطة لا بأس بها .

ومنذ ذلك العهد الأول السحيق ، وبرغم تعرض صاحب الوظيفة فى بعض الأحيان للمخاطر ، بل للتهلكة ، نجد التنافس والتآمر للحصول عليها يزيدان على الحد ؛ ذلك أنها كانت إغراء قويًّا لتلك الروح المتأصلة فى الإنسان ، روح السيطرة ، التى لم يستطع المسيح نفسه ، حسب ما ترويه لنا الأناجيل ، أن يقى منها الحواريين . وكان المفروض فى الأسقف أنه المسئول أمام الله عن إيمان وخلق وطاعة كنيسته ، غير أن هذه المسئولية المروعة فى حد ذاتها لم تكن إلا لترفع من صورة صاحبها فى أعين قومه وفى عينه هو أيضاً . والواقع أن

الإدارة الدينية والأخلاقية للجماعة كانت له ، وكذلك أصبحت له سلطة التنظيم والعقاب التى كانت من قبل لمجلس الإخوة . وكان له أيضاً أن يعزل كل مخطئ يقوم فى رأيه بعمل غير لائق ، فلا يقبله فى طقوس القربان وينفيه بذلك نفياً خارج حدود الجماعة . وكان يدير الكتبة ، ويشرف على المسائل المالية ، وينظم المعونات والصدقات المقدمة إلى الفقراء ، ويقوم إذا لزم الأمر بدور القاضى بين رعيته . وكانت وظيفته تعتمد خاصة على إقامة الطقوس القدسية ، فهو يعمّد ويسمح بالقربان ، وتلك هى الصلاحية التى جلبت له ، من بين كل صلاحياته ، أكثر قسط من التقدير والنفوذ . وإن أهميته فى هذه الناحية لسوف تزداد بعد ذلك بتأصيل المفهوم السحرى لطقوس الأسرار الفعالة فى شعائر العبادة . فإذا أضفنا إلى كل ذلك ما فرض على الأسقف من عيادة المرضى وحثّ الناس على الصبر وبعث الأمل لديهم ، لأدركنا أبعاد دوره وجوانب سلطاته المختلفة .

ولم يكن لهذه السلطات من حدود ، فى الحقيقة ، سوى استغلال الأسقف لها ، مما أثار بعض ألوان المقاومة لدى صغار الموظفين ولدى الأتباع ، بل أدى ، عندما قضت الضرورة بذلك ، إلى أنواع من « الإضراب » والاحتجاج ، كانت تضطر الذى خرج عن جادة الصواب إلى التنازل عن منصبه ، أو تضطر زملاءه من الأساقفة الذين أقاموه فى هذا المنصب إلى عزله .

ومهما كان من نفوذ الأسقف بين جماعته ، فهو لا يعدو أن يكون « أخاً » من الإخوة بالنسبة إلى الجماعات المجاورة ، إذ يستقبل فيها بالاحترام الواجب له ، ولكنه لا يستطيع حتى أن يتحدث إلى مجلسها إن لم يسمح له الأسقف المحلى ، صراحة ، بذلك . وكانت كل كنيسة ، قانوناً ، لا تزال صاحبة الأمر المطلق

والحرية التامة فى تنظيم إيمانها ولوائحها كما تشاء . غير أن خطورة هذا الاستقلال الانعزالى بدأت تظهر بوضوح . ولو دام الحال كما كان عليه لما قامت للكنيسة الكاثوليكية قائمة ، ولتفرق المسيحيون فى شيع ضئيلة الشأن مشتتة . ولحسن الحظ ، أصلح المراس العملى للحياة الدينية من ثغرات القانون : فقد اهتمت كل كنيسة فى بادئ الأمر بأحوال جاراتها ؛ واتخذت الكنائس الصغرى ، على الأخص ، قدوة لها من الكبرى ؛ وتنقل المؤمنون فى الكنائس المختلفة ، رابطين بينها أحياناً بأواصر صلات قوية ثابتة ؛ وتزاور الأساقفة المتجاورون ، واهتموا على الأخص بالتراسل ، بل أصبحوا يجتمعون فى ندوات صغيرة ليتشاوروا فى الأمور التى تثير حيرتهم . وهكذا بدت سلطة الأسقف الملك ، فى القانون والواقع على حد سواء ، دعامة التنظيم الكاثوليكى الجوهرية ، وذلك قبل أن تنبت فكرة البابوية بزمن طويل .

ولقد انتصر الأسقف فى يسر على المدنيين من غير رجال الكنيسة ، فجردهم من الصلاحيات التى كانوا يمارسونها فى رحاب الجماعة الأولى . إلا أن صراعه كان أقسى مع موظفى الكنيسة الدينيين من « البريسبيروس » و « الدياكونوس » . ولدينا دلائل تشير إلى ألوان من المقاومة العنيدة . ولكن هذه المقاومة لم تغن شيئاً حيث لم يتحد أصحابها ولم ينسقوا أهدافهم ، ثم — وهذا هو السبب الأساسى — لأنها لم تجد لها سنداً من مبادئ أو تبريرات يمكنها أن تقف فى مواجهة تلك التى اعتمد عليها نظام الأسقفية الملكية .

وبعد انتصار الأسقف النهائى ، انتظم موظفو الكنيسة الآخرون — الذين لم يعرفوا بـ « الإكليروس » إلا فى القرن الثالث — انتظموا إلى جانبه فى « هيئة » ،

أى : فى طائفة خاصة متميزة بين جمهور المؤمنين . وأصبح الدخول فى هذه الهيئة بـ « التنصيب » ، الذى يتصرف فيه الأسقف تصرفاً مطلقاً . والتنصيب لم يكن بعد سوى تسليم الموظف مهام وظيفته ؛ ثم صاحب ذلك الإجراء تدريجيًّا نوع من الطقوس الخاصة يختلف باختلاف الوظيفة ، وامتزجت به فكرة تحقيق المواهب التى أصبحت مفهوماً قدسيًّا فى الهيئة ، إلا أن تلك الأمور كانت لاتزال فى طى الغيب فى القرن الثانى الذى نتحدث عنه .

وفى هيئة الإكليروس هذه (« أوردوكلير يكاليس ») ، نجد طائفة « الدياكونوس » الذين يجب ذكرهم أيضاً بعد ذكر الأسقف لأنهم هم عون له ، ويعدّون أعيناً تنظر وتجمع المعلومات ، وسواعد تعمل من أجله . ولسوف تمثل العلاقة بين الأسقف وبين الطائفة فيما بعد بتلك التى كانت بين موسى وهارون . ولم يلبث أن ظهر فى الكنائس الكبرى موظف جديد ، ليرأس مجموعة « الدياكونوس » ؛ وفى خلال القرن الرابع نرى أفراد هذه الطائفة أحياناً يرفضون الخضوع الوظيفى للقسس ، وهم فى ذلك على حق من حيث المبدأ ، إذ أن وظائفهم لم تكن فى أصل نشأتها أقل أهمية من وظائف « البريسبيتيروس » ، بل كانت ذات طبيعة مختلفة وكان الواجب أن ينظر إلى الطائفتين بالتوازى لا أن يبحث أمر خضوع إحداهما للأخرى . بيد أن الزمن محا شيئاً فشيئاً هاتيك الاختلافات الأساسية ، بحيث ذهبت المؤتمرات الكنسية فى القرن الرابع إلى الحكم بالخطأ والإثارة الفاضحة على موقف « الدياكونوس » الذين يرفضون التبعية للقس فى الصلاة وفى طقوس القربان .

أما القسس « البريسبيتيروس » ، فيبدو أن أصل نشأتهم يرجع إلى نظام « مجلس القدماء » (« سانهيدران ») فى المعبد اليهودى وكانوا يشكلون فى أول

الأمر ، مجلس الجماعة الذى يدير أمورها فى الواقع . ثم اقتصرت وظائفهم تدريجيًا على المجال الروحى ، وأصبحوا بعد قيام الأسقفية الملكية مندوبين للأسقف ، أو إذا اقتضت الضرورة نواباً عنه فى الوظائف الخاصة بالمسائل الروحية . ولهذا فهم يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من « الدياكونوس » الذين ظلت صلاحياتهم محددة فى البداية بالأعمال الإدارية المادية .

ولما نمت معالم الحياة الكنسية واتخذت مراسم الشعائر فيها مكاناً ممتازاً ، أضيفت شيئاً فشيئاً ألوان جديدة من الوظائف الثانوية المتخصصة إلى هيئة الإكليروس بجانب القساوسة و « الدياكونوس » ؛ فنجد منذ بداية القرن الثالث أو حوالى ذلك ، « حراساً لباب الكنيسة » و « قراء » وغير ذلك من الموظفين . وكان أمر اختيارهم متروكاً للأسقف ؛ واستقر التقليد بالتدريج على اعتبار هذه الوظائف المساعدة تجربة تمتحن فيها « المواهب » وتدعم لتتجه بعد ذلك وجهتها الأصلية فى أعمال « الدياكونوس » أو القسس ، بل الأساقفة أيضاً . وكان المفروض بطبيعة الحال فى هؤلاء الموظفين الصغار أن يتميزوا بأخلاق قوية وسمعة طيبة ، إلا أنه كان يسمح لهم بالزواج ، حتى بعد إجراء « التنصيب » .

وكان الإكليروس فى هذا العصر يشتمل أيضا على مجموعات من النساء ، أطلق عليهن الاسم المؤنث من « دياكونوس » ، أو لقب « عذارى » أو « أرامل » ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نميز بوضوح بين الوظائف المعينة المقابلة ولاشك لكل درجة من هذه الدرجات ، ولا أن نحدد اختصاصات أى منها . ونفهم فقط أن هاتيك النساء الملحقات بالكنيسة ، لم يطلب منهن القيام بالتعليم ولكن بالخدمة . ويبدو أنهن كن أيضاً معاونات للأسقف فى اتصالاته

بـ « الأخوات » فى نطاق الجماعة . ويبدو أن الحذر من فتنة الجنس كانت شديدة بين المسيحيين ، وناشئة عن التجربة ، ولذلك اتخذت الحيطة اللازمة للحفاظ على الموظفين من تلك الفتنة ، وإن تم ذلك أحياناً بكثير من السذاجة الصبيانية .

وكان كل هؤلاء الموظفين يعيشون ، من حيث المبدأ ، على الرزق الذى يجدونه فى « مذبح » الكنيسة ، من هدايا وتبرعات الأتباع ؛ ولكنهم فى الواقع اقتدوا بما فعله بولس الحوارى ، فراح العدد الوفير منهم يعمل إلى جانب وظيفته فى بعض الصناعات اللائقة .

وظلت الجماعات المسيحية فترة طويلة تنتظم فى مجتمعات مصغرة – على غرار جماعات اليهود فى بلاد الوثنية – يتمتع فيها سائر الأعضاء بالمساواة الدينية التامة ، فيجدون بالتالى أن قيام بعضهم بالوظائف الكنسية لايفرق بينهم وبين بقية « الإخوة » من حيث « الجوهر » ، وإن ميزهم من حيث الشكليات . ولكن ذلك تغير شيئاً فشيئاً فى العهد الذى سادت فيه الشعائر ، والعادات ، والفكر ، والتنظيم ، بل بالمبدأ العام للقيادة الموحدة – فى انتظار تكوين الهيئة التى تحتم إنشاؤها بعد ذلك والتى سوف توضح هذا المبدأ وتطبقه مستقبلا .

ويبدو أن المفهوم الكاثوليكى إجمالا ، ينبع أساساً من عنصرين جوهريين : أحدهما نستطيع أن نستخلصه من الحياة العملية ، والآخر من ميدان النظريات .

فمنذ القرن الثانى كان « ترتوليان » يعبر عن العقيدة السائدة بقوله إن « المسيحيين جسد واحد » ، يجب على أعضائه أن يظلوا متحدين لمصلحة المجموع ولتثبيت الحق . . ولم تكن هذه الوحدة الأخوية ، على أى حال ،

لتعتمد إلا على الإيمان بـ « وجوبها » هى نفسها وعلى الإرادة الجماعية الخالصة . ولم يكن القوم يبحثون عندئذ فى إخضاع كنائس معينة لأخرى ، وهو الإجراء الذى كان من شأنه تيسير المشكلة إن لم يؤد إلى حلها . ولاأزيد على ذلك مثلا سوى موقف القديس سيبريان أسقف قرطاجنة فى القرن الثالث – وكان من كبار الدعاة إلى الوفاق – تجاه إتيين أسقف روما . فقد أثار سبيريان جميع أساقفة أفريقيا ضد هذا الأخير بشأن مشكلة من مشاكل التنظيم ، معتمداً فى قوة على الحق المطلق الدائم الذى تتمتع به كل كنيسة فى أن تحكم بما تشاء بين رعيتها ومؤكداً لهذا الحق . ولقد نشأت فكرة « الوحدة المسيحية » فى الواقع من الاتصال المتكرر بين الجماعات المختلفة ، ومن الأحاديث بين الأساقفة ، ومن تبادلهم الرسائل بشأن المشكلات التى تهم الجميع كتحديد موعد الاحتفال بعيد الفصح أو الاتفاق على موقف موحد بالنسبة إلى مذهب جديد أو بدعة معينة .

وذلك هو العنصر الجوهرى الأول الذى أشرنا إليه .

أما العنصر الثانى ، فهو « فكرة الإيمان الكاثوليكى » ، وهى تعنى أولا : الإيمان المشترك العام المقابل للإيمان الفردى الخاص ، أى للبدعة . وسبق لنا القول بأن هذا الإيمان « الطبيعى » كان – فى العقيدة الشائعة – هو هو إيمان الحواريين ، حفظته الكنائس التى أنشئوها فى سنن كتب لها الدوام . ورأينا الكنائس تعلن ، كنتيجة حتمية للرأى المذكور ، أن لا خلاص بغير هذا الإيمان . وينمى القديس إيرينيه – أسقف مدينة ليون فى الربع الأخير من القرن الثانى – ذلك الرأى الذى كان من آثاره العملية تدعيم فكرة الأولوية الشرفية للكنائس الحوارية ، أى أنه بدأ يحدد ما يمكن أن نسميه بالإطارات الإدارية المستقبلة للكاثوليكية . ولم يظهر « المطارنة » بصورة رسمية إلا فى بداية القرن

الرابع ، ولكنهم وجدوا بالفعل قبل ذلك بزمن طويل . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن الكنائس الكبرى ، أى كنائس المدن الضخمة ، بدأت شيئاً فشيئاً تؤثر على الجماعات الصغرى المجاورة لها بشكل يشبه السيطرة . ولم يكن على المؤتمرات الكنسية بعد ذلك سوى أن توافق وأن تعطى الصفة القانونية الرسمية لما كان قد تم فعلا ، وذلك عندما اعترفت فى القرن الرابع بسلطات الأساقفة المطارنة (المركزيين) .

ولو فكرنا قليلا فى الظروف المواتية التى اجتمعت لكنيسة روما فسمحت لها بأن تسيطر على كنائس الغرب ، لما استغربنا أن نراها تحقق هذا الهدف فى يوم من الأيام .

لقد قيل عن هذه الكنيسة إنها ابنة بطرس الحوارى ، وبرغم أن بها كرسيه وقبره ، وزارها بولس الحوارى ، ومات بسيف الجلاد على مقربة من أحد أبواب المدينة ، كان استشهاده تدعيما لعمل بطرس . وكانت كنيسة روما ، منذ السنين الأولى من نشأتها ، معروفة بكثرة أعضائها وبغناها ، وتشهد مقابرها بذلك ؛ كما أن وفرة صدقاتها على الكنائس الأخرى وكرمها جعلا إيجناس يصفها بأنها « قائدة الرحمة » . وكان نفوذها يتخذ له سنداً من نفوذ عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ولم تعارض كنائس الغرب الأخرى – التى كانت كنيسة روما أمًّا لها فى كثير من الأحيان ، ولعلها كانت أقدمها قاطبة فى الوجود – لم تعارض فى منحها الأسبقية الشرفية التى تحتمت لها ، وذلك قبل أن تفكر هى فى استغلال مختلف النصوص الإنجيلية لتبرير أسبقيتها شرعاً .

وهكذا نرى ، منذ بداية القرن الثالث ، أن الكنائس وصلت إلى التنظيم الذى سوف تحتفظ منه – على أقل تقدير – بالإطارات ؛ وأنها اتجهت إلى فكرة

الدوام فى هذا التنظيم . كذلك نرى الكنيسة العالمية تخرج من مجال التجريد والأحلام لتحقيق ذاتها فى الاتحاد والتعاهد بين الكنائس الخاصة ؛ ولن يكون على المستقبل بعد هذا إلا أن ينمى المبادئ والمقدمات التى أنشئت منذ ذلك العصر .

ولنذكر منذ الآن أن هذا التنسيق للمسيحيين فى جماعات منظمة مغلقة ، ثم هذه النزعة التى ذكرناها نحو الكاثوليكية – (العالمية) ، كان من شأنهما ، ظاهريًا : أن يفسحا المجال للتعصب المسيحى ، وأن يبرزا موقف المؤمن فى معارضته للكافر وكراهية المجتمع المسيحى لمختلف المجتمعات الأخرى . ولكننا ، إذا فحصنا الأمور عن كثب ، نرى أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالكنائس ، على عكس ما تدعى ، لا تعيش منعزلة عن الوسط الذى يحيط بها ، بل تعيش فيه ، وتعيش به ومنه ، وتعدّ منظمات بديعة تهضم فى اتجاهاتها التأليفية كل ما تجده من قيم دينية ذات بال فى الديانات المجاورة ؛ هذا بالإضافة إلى أن النزعة إلى الكاثوليكية تساعد على الموازنة والتنسيق فى وحدة منسجمة بين العناصر الخاصة المتباينة .

ومنذ ذلك العصر ، نستطيع أن نلمح فى أعماق الكنيسة الأسباب الجوهرية التى تفسر التغير الجذرى الذى طرأ على موقف الدولة والمجتمع منها فى القرن الرابع .